رؤية تحليلية في نصوص الكتاب المدرسي

الزواج والحرب

زكريا محمد

تتناول هذه المادة درساً واحداً من كتاب (المطالعة والنصوص) للصف التاسع كنموذج لها، لتبين من خلاله كيف يتم استخدام تعليم اللغة أحياناً كمجرد وسيلة، أو كمطية، لنشر قيم اجتماعية غير مقبولة وغير متفق عليها.

الدرس المقصود بعنوان: (وصية أم لابنتها). وهي وصية مأخوذة من (جمهرة خطب العرب).

ليس لدي، بالطبع، شك حول القيمة اللغوية للوصية. فقد صاغها، على الأغلب، لغوي محترف لتعليم قيم بدوية جاهلية حول الزواج، لا أم تقدم وصية لابنتها قبل الذهاب إلى بيت الزوجية. وقد كان على من وضع الدرس في المنهاج أن يشير إلى هذا الأمر المهم. فالفارق بين أن تكون وصية عفوية لأم بدوية وبين أن تكون وصية صاغها رجل يعرف قيم المجتمع البدوي، ويريد أن يثبتها، فارق مهم.

وإذا كانت قيمتها اللغوية واضحة، فإن القيم الاجتماعية – الأخلاقية التي تطرحها خطيرة جداً، ولا يجب أن تقبل على علاتها. ولو كان المقصد اللغوي هو الأساس فعلاً، فقد كان على من أدرج الوصية في المنهج أن يوضح، منذ البدء، أن هذه القيم غير مقبولة في الوقت الحاضر، أو أنها، على أقل تقدير، قيم مختلف عليها. وقد كان على هذا التوضيح أن يبرز في التحليل وفي الأسئلة.

لكن هذا لم يحصل. لذا، فإن لنا أن نشك في أن من وضع الوصية في المنهاج إنما كان يدرك أنه يزرع قيماً يؤمن بها ويريد أن ينشرها، على الرغم من أنها لا تحظى بالإجماع، وليست متوافقة مع قيم زماننا. وهذا أمر غير مقبول. إذ لن يكون بإمكاننا قبول زرع قيم مجتمع بدوي، كان موجوداً قبل ألف عام أو أكثر، باعتبارها قيما تلائم مجتمعنا الحاضر.

إنها في الواقع قيم تتعارض مع قيمنا المشتركة المنصوص عليها في وثيقة الاستقلال، وفي القانون الأساسي: قيم المساواة بين الرجل والمرأة وقيم الحرية.

ولنوضح هذا التعارض بالمثل والشاهد.

تقول الأم المفترضة لابنتها:

(فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً،
فكوني له أمةً يكن لك عبداً وشيكاً)

وكما ترون فمنطق النص منذ البدء منطق عبودية، لا منطق عقد ومساواة ومشاركة. فالزوج قد (ملك) على زوجته، وصار عليها (رقيباً). وعليه، فهي لا تدخل إلى بيت الزوجية، بل إلى سجن العبودية. هذا ما يقوله النص بوضوح: (كوني له أمّة)!!

وعليه، فليس الأمر أمر زواج لأناس متساوين أحرار، بل مسألة قيد عبودية يوضع في المعصمين.

وإذا ما أرادت البنت أن تتخلص من العبودية، أو على الأصح إذا ما أرادت أن تحتملها، فعليها أن توقع زوجها فيها. إذ تقول الوصية: (كوني له أمة يكن لك عبداً). إذن فمصير الطرفين هو العبودية. فعلى المرأة أن تقبل بعبودية الزواج ثم توقع، بالمسكنة، زوجها فيها، والسلام.

إنه منطق عبيد من الأول للآخر.

ثم ترسم الأم المفترضة الطريق الذي من خلاله ستحول ابنتها إلى أمَة وزوجها إلى عبد قائلة:

(اعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين،
حتى تؤثري رضاه على رضاك،
وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت).

هذا هو طريق الخنوع، طريق (السعادة الزوجية) التي لا تختلف عن سعادة العبيد المرة. فهوى الزوج أعلى من هوى المرأة منذ البدء. وعليها هي أن تقبل بذلك لا أن ترفضه أو تخفف منه. وإن لم تقبل به فلن (تصل إلى ما تحب). و(ما تحب) هو أن تحول زوجها إلى (عبد وشيك). فلكي تحوله إلى عبد يجب أن تقبل أن تكون هي أمة.

فالاثنان يجب أن يغرقا في مستنقع العبودية.

ثم انظر إلى نصيحة الأم حول إفشاء أسرار زوجها:

(إنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره،

وإن عصيت أمره، أوغرت صدره).

لا تقول الأم المفترضة لابنتها أن أسرار زوجك هي أسرارك فحافظي عليها، بل تحذرها من الإفشاء بها لأن زوجها سوف يغدر بها إن فعلت.

هل هذا زواج أم حرب؟ وهل ترسل الأم ابنتها إلى بيت الزوجية أم إلى ساحة حرب؟

إنها في الواقع حرب حقيقية. وقد كان الزواج في المجتمع الجاهلي نوعاً من الحرب فعلاً. فالبنت التي تنتقل إلى بيت الزوج الغريب هي أسيرة في الواقع أكثر منها زوجة. ومن أجل تجنب مصير الأسرى فقد كان الناس يئدون بناتهم، وكان (إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) كما يقول القرآن.

وفي تحليل الدرس يتم طرح هذا السؤال الذي يكشف، من دون قصد العلاقة كلها:

- لماذا استخدمت الأم كلمة (عش)؟
- للدلالة على البيت الذي نشأت فيه ابنتها،
- وكلمة (وكر) للدلالة على بيت الزوجية؟

والجواب واضح تماماً. واضح جداً. فالأم البدوية تعرف أنها ترسل ابنتها إلى ساحة حرب، إلى وكر ذئاب ومفترسات. لذا زودتها بالنصائح التي تنقذها من أن تكون فريسة! هذا هو الأمر كله. فزوجها عدوها، وهي أمة عنده، وإذا أرادت أن تنجو فعليها أن تحوله بالمذلة والمسكنة هو أيضاً إلى عبد.

عليه، فهناك من يريد أن يجعلنا نبتلع، بوعي أو من دون وعي، قيماً مخيفة تحت ستار القيمة اللغوية. أي أن الهدف ليس لغوياً صافياً، بل اجتماعي أخلاقي.

بل لعلني أقول إن الهدف الأساسي هو اجتماعي أخلاقي في الأساس، وأنه يتم التوجه إليه بوعي كافٍ. دليل ذلك هو السؤال رقم (8)، الذي يقول:

(8- أوضح الأسباب التي جعلت هذه الوصية تحتفظ بقيمتها على الرغم من مرور قرون عديدة عليها).

واضح هنا أن المقصود هو القيمة الاجتماعية – الأخلاقية لا القيمة اللغوية. فمن وضع النص في المنهاج مقتنع أن هذه القيمة لا تزال صالحة حتى الآن، وأن بالإمكان تطبيقها على مجتمعنا الحالي. لذا، فقد بادر إلى وضعها في المنهاج. أي أنه يريد إرغامنا وإرغام أبنائنا على القبول بهذه القيم واتباعها، على الرغم من أنه يعرف أنها قيم مختلف عليها. ووسيلته إلى ذلك هي الوسيلة اللغوية. إنه يضع لنا ألغاماً داخل قالب لغوي، ويريد منا أن نقبلها وأن نشكره على ذلك.

ومن أجل هذا فهو يطلب من الطالب أن يكتب

(في حدود عشرين سطراً وصية بلسان أخ لأخ، يقدم له فيها مجموعة من النصائح التي تضمن الاستقرار والسعادة الزوجية، مستعيناً بالنصائح التي وردت في النص).

وهكذا فعلى الطالب أن يستعين بنصائح المرأة البدوية لكي يقدم نصائح لأخيه المفترض. أي أن عليه أن يبني على هذه النصائح، لا انطلاقاً من وضع مجتمعنا الحالي ومن قناعته الخاصة. وما دام النص قد حافظ على قيمته طوال مئات السنوات، فإن كل ما هو مطلوب هو أن يعكس الطالب نصائح الأم لكي تصبح نصائح لأخ تحذره من الحرب المقبلة مع الغريبة التي ستسمى زوجته، لا أن يناقش هذه النصائح ويبين رأيه فيها. وحينها سيقول:

أي أخي، إنك مقبل على حرب. فسوف تجيء

بعدو يسمى زوجة. فإياك أن تفشي لها أسرارك.

وإذا ما أبدت لك لينا فلا تصدق لينها، فهي خطة للسيطرة

عليك واستعبادك. لذا فلتكن العصا في يدك...الخ).

هذا مثل واحد على ما يتم زرعه في عقول أبنائنا من قيم مضادة للقيم المتفق عليها. إنها تزرع بـ(براءة) لا تخفى عدم براءتها على كل عين مدققة.

زكريا محمد – شاعر وكاتب يقيم في رام الله